مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد السادس والعشرون - المجلد الرابع - التاريخ - تشرين أول 2025م
doi.org/10.52866/esj.2025.04.26.14

جامعات الأندلس :
جسور التنوير التي ربطت الشرق بالغرب
(دراسة تاريخية)

أ. د. بشرى محمود صالح
مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية / الجامعة المستنصرية - العراق
dr.bushra.m.sa@gmail.com

مستخلص:

إذا كانت قيمة كل حضارة وأهميتها تقاسان بعظمة تأثيرها المادي والأدبي، ودوام هذا التأثير في إطار التاريخ العام، فمن الممكن القول: إن الحضارة العربية في الأندلس كانت صفحة مشرقة في الحضارة الإنسانية، على الرغم من كل نقاط الضعف والخلافات التي شهدها الحكم العربي الإسلامي في الأندلس طيلة ثمانية قرون ونيف. وان هذه الصفحة صنعها مسلمو الأندلس من عرب وبربر وسكان أصليين، وقد ساهم فيها نصارى البلاد وغيرهم من أهل الذمة.

الكلمات الافتتاحية: الحضارة العربية، والأندلس، الجامعات الأوربية.

Andalusian universities and their impact on the European Renaissance

Mr. Dr. Bushra Mahmoud Al-Zubaie
Al-Mustansiriya Center for Arab Studies
Al-Mustansiriya University/Iraq
dr.bushra.m.sa@gmail.com

Abstract

If the value and importance of every civilization are measured by the greatness of its material and literary influence, and the continuity of this influence within the framework of general history, then it is possible to say: The Arab civilization in Andalusia was a bright page in human civilization, despite all the weaknesses and disagreements that the Arab Islamic rule in Andalusia witnessed for more than eight centuries. And this page was made by the Muslims of Andalusia from Arabs, Berbers and indigenous people, and the Christians of the country and other people of the covenant contributed to it.

المقدمة

ومما لا شك فيه أن أثر هذه الحضارة كان حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوروبا المسيحية، بل إن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط، في كل ناحية من نواحي جبال البيزنية والبحر المتوسط. وقد نظمت الشاعرة الألمانية روسوندة (Hroswitha) أبياتاً من الشعر في منتصف القرن العاشر أطلقت على العاصمة الأموية (قرطبة) (زينة الدنيا)، فيما أرسل (أوتون الأول أمبراطور جرمانيا سفيره «جان دي غورتس») في العام 956م الى عبد الرحمن الثالث، فينقل الينا مترجم حياة هذا السفير مشاعره التي أحس بها أزاء حضارة كان يعرف عنها من قبل أنها رقيقة وناعمة.

في الواقع ان القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) يسجل ذروة ازدهار الحكم الأموي في الأندلس، مقترناً باسم عظيم هو أسم عبد الرحمن الناصر الذي بانتحاله صفة الخلافة السامية قد جعل الأندلس بلداً إسلامياً جديداً.. مملكة متينة البنيان.. متحررة من آخر ما كان يربطها من الالتزامات، حتى ذلك الوقت، بسائر العالم الإسلامي ... دولة قوية، تستطيع دول أوروبا المجاورة التعامل معها في شتى المجالات، فاتحا بذلك باباً جديداً للنفوذ الفكري، ولكي تقوم المؤثرات الحضارية بدورها المتبادل، الذي أثمر فيما بعد عن ذلك النمو الحضاري الذي تشهده أوروبا اليوم.

إشكالية البحث:

يناقش البحث كيفية تفاعل الجامعات الأوربية مع الأرث الأندلسي وماهي الآليات التي سهلت نقل المعرفة وما مدى تأثيرها على التطور الأكاديمي الأوربي.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة الى تحليل قنوات التواصل بين المثقفين الأندلسيين والمؤسسات الأوربية ودراسة تأثير النصوص المترجمة (الفلسفة، الطب، الفلك) في مناهج الجامعات الأوربية وتقييم دور المثقفين وهم اليهود والمترجمين في طليطلة.

منهجية البحث:

اتبع في البحث المنهج التاريخي التحليلي ومقارنة المناهج التعليمية في الأندلس وأوربا. وهو ما يسمى (بالمنهج المقارن).

المبحث الاول

الأندلس تحت الحكم الإسلامي:

المراحل السياسية والثقافية

عصر الازدهار الحضاري في الأندلس المسلمة:

عندما دخل العرب المسلمون الى الأندلس في العام 92هـ/ 711م، لم يجدوا فيها حضارة عريقة خاصة بها يمكن الاستفادة منها في تطوير حضارتهم الجديدة القادمة معهم من المشرق العربي، ولذلك فقد اتجهت الأندلس المسلمة الى المشرق، لتأخذ منه أساليب الحضارة في النظم والفكر، وتستفيد مما وصلت اليه من تقدم وأزهار، ولاسيما أوروبا كانت حينذاك تعيش حالة من التخلف الحضاري والاجتماعي والسياسي [1]. فضلاً عن خضوعها أيضاً لمؤثرات حضارية محلية بحكم البيئة التي نشأت فيها [2].

---

(1) ناجي معروف، المدخل في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة العاني، بغداد، 1960م، ص240.

(2) خليل إبراهيم السامرائي، حضارة العرب في الأندلس، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الموصل، 1986، ص313.

ومع ذلك فقد ظل المجهود العلمي والحضاري للأندلس المسلمة، على الرغم من كل التأثيرات طابعاً عبقرياً بارزاً أنتجه العرب هناك لاأموا بينه وبين البيئة الطبيعية والبشرية والاجتماعية، واعلنت الأندلس شخصيتها المستقلة مع حرصها الدائم على الصلة الوثيقة بالتقاليد والتراث المجيد للأمة العربية في المشرق[1].

شهد القرنان التاسع والعاشر الميلاديين من الحكم العربي الإسلامي في الأندلس مطلع المرحلة التي بدأ علماء الأندلس فيها بتقديم أضافات علمية أصلية بعد أن تجاوزوا المعرفة المشرقية العباسية. فإلى جانب النزعة الاستقلالية الجديدة التي أظهرها كبار الشخصيات أزاء ثقافة المشرق وعلومه تضافرت في الأندلس آنذاك مجموعة من العوامل والظروف[2]، لتبلغ بالحضارة العربية في الأندلس شأوا بعيداً من التقدم والازدهار ولاسيما في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300 - 350هـ/ 912 - 961م) الذي أرتقت فيه قرطبة الى أوج عزها، مما دفع الراهبة السكسونية المعاصرة (هرسوثيا) أن تسميها «زينة الدنيا»، فيما كتب المؤرخ المغربي، المقري عن هذه المدة بعد سبعة قرون قائلاً : تتفوق قرطبة على عواصم العالم بأربعة أشياء : القنطرة فوق نهرها، والجامع، وهما أول أثنين، والثالث مدينة الزهراء، لكن الرابع أعظمها وهو العلم»[3].

لقد سجل عهد الحكم بن هشام الربضي (180هـ/ 796م - 206هـ/ 822م)، وهو أول أمراء (عصر الازدهار الحضاري) بداية بزوغ مظاهر النشاط الثقافي والفني في الأندلس، حيث ظهر شعراء ذوو مكانة، مثل: عباس بن ناصح ويحيى الغزال وإبراهيم بن سليمان الشامي، الى جانب عدد من الفقهاء واللغويين، بل ومن مجيدي الغناء[4].

وبعد ذلك، هبت رياح التأثير العراقي، الذي أزدهر هذه المرحلة لعوامل كثيرة على الأندلس التي توافرت لها في الوقت نفسه عوامل جذب لهذه الحضارة منها: رغبة الأمير عبد الرحمن الثاني) أو (الاوسط) بن الحكم (206 - 238هـ/ -822 852م) في ترك سياسة الانعزال عن العراق التي سار عليها آباؤه، وان يساير حركة الازدهار الحضاري التي اشتهرت بها بغداد، ففتح أبواب الأندلس امام التيارات العراقية فضلاً عن بروز مظاهر الترف والرفاه في المجتمع الأندلسي بسبب الازدهار الاقتصادي، مع الأخذ بالحسبان إقبال أهل الأندلس على الحياة الفكرية التي نشطت من جراء الاستقرار السياسي وما تبعه من نشاط اقتصادي[5].

كان عبد الرحمن رجل حضارة بمعنى الكلمة، وكان يبلغه ما وصلت اليه بغداد من الرقي والعمران في عهدي الرشيد والمأمون، ولهذا فقد

(1) خاشع المعاضيدي، تاريخ العرب في الأندلس 92 - 897هـ/ 711 - 1492م، بغداد، 1986، ص248.

(2) اكسيراثيون غارثيا سانشيز، الزراعة في أسبانيا المسلمة، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2، بيروت، كانون الأول، 1998، ص1367.

(3) روبرت هيلنبراند، «زينة الدنيا» : قرطبة القروسيطية مركزاً ثقافياً عالمياً، ج1، بلا تاريخ، ص190.

(4) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي (92 - 897هـ/ 711-1492م)، المصدر نفسه، ص75.

(5) خليل أبراهيم السامرائي، حضارة العرب في الأندلس، مرجع سابق، ص318.

رأى أن يستفيد بقدر ما يستطيع من ثمرات العباسيين وثقافتهم الراقية، وعني بالاستفادة من النهضة العلمية ببغداد، فبعث بشاعره عباس بن ناصح الثقفي الى العراق، لكي يجلب له كتب «علوم الاوائل»، أي الرياضيات والفلك والطب وما أليها، ورحل الى بغداد سفيره وشاعره يحيى بن الحكم الغزال، وأدخل الى الأندلس مذهب الشعراء المحدثين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية، كما وفد على العراق كثير من طلبة اللغة والنحو والتفسير وعادوا الى بلادهم محملين بزادٍ ثقافي وفير في هذه العلوم[1]. ويشيد المقري بسيرة هذا الأمير فيقول عنه: «وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة، واتخذ القصور والمتنزهات، وجلب اليها المياه من الجبال، وجعل لقصره مصنعاً اتخذه الناس شريعة، وأقام الجسور، وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس ...»[2]. وقام بتوسيع المسجد الجامع بقرطبة ورفع سقفه، وابتكر مهندسوه في المسجد تلك الأقواس المزدوجة التي تعد من روائع مبتكرات العمارة الأندلسية[3].

واستقبل الأمير عبد الرحمن في بلاطه شخصية حضارية هو علي بن نافع الموسيقي المعروف بزرياب الذي لم يكن مجرد موسيقار ومغن بارع فحسب، بل كان ممثلاً لرقة الحضارة العباسية ورقيها، وتقاليدها، ورسومها وآدابها في كل شيء: في طريقه الزي، وفي آداب الموائد، وفي أوضاع ما نسميه الآن بـ «البروتوكول» و«الاتيكيت».. بل حتى في طريق تصفيف شعر الرجال والنساء[4]. وفي ميدان عمله أظهر زرياب أنه موسيقي من الطراز الأول، فأنشأ معهد للموسيقى يعلم فيه الشبان والشابات وكان يُعنى بتربية الصوت وتوسيع مداه، فتتسع قدرته للتعبير الغنائي عن المعاني والأحاسيس، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود، فأضاف اليه وترا خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها واخترع الفرق الموسيقية التي تجمع بين الإنشاد الجماعي والفردي فضلاً عن العزف. وهو أول من أنشأ في الأندلس المسرح الصغير الذي تجلس عليه الفرقة الموسيقية وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة.

وكان غناء أهل الأندلس الى ذلك الحين غناء عربياً بسيطاً، هو الحداء، فأدخل زرياب موسيقى عالية، عرفت بأسم «الزريابية» وأصبح الحداء أو الحدو، هو الغناء الشعبي، على حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية في الأندلس[5].

استلم الأمير محمد (الأول) مقاليد الحكم من أبيه عبد الرحمن بن الحكم (238هـ / 852م - 273هـ/ 886م)، وكان هو الآخر مشجعاً للثقافة وحرية الفكر، كما يبدو في موقفه من الفقيه المحدّث بقي بن مخلد (ت 276هـ / 889م) الذي قدم بعد رحلته الى المشرق بمجموعات من الأحاديث وبرسالة الإمام الشافعي، فثار عليه فقهاء المالكية وأثار العامة عليه وكادوا يفتكون به لولا حماية

(1) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، مرجع سابق، ص77.

(2) الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ج1، بيروت، 1388هـ - 1968م، ص347.

(3) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، المصدر السابق، ص 77.

(4) المصدر نفسه، ص 77.

(5) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار ومطابع المستقبل، ط1، القاهرة، 1980، ص289.

الأمير وتشجيعه له على نشر علمه.

وفي عهده نبغ علماء مرموقون مثل: عباس بن فرناس (ت274هـ/ 887م)، وهو حكيم ومخترع ومنجم وموسيقي وشاعر، وصاحب أول محاولة للطيران[1].

وقد أشار (ليفي بروفنسال الى بعض مواهب عباس بن فرناس فقال: «وعالماً فلكياً رسمياً هو عباس بن فرناس، يكتشف في مختبره طريقه لصناعة البلور، وفي تجربة مذهلة نفذها في الفضاء على طائرة بلا محرك، فقطع مسافة ما، ثم سقط، وحالفه الحظ، اذ نهض من دون ان يصلب بأي أذى تقريباً تماماً كأيكار Icare ثاني مبشر بالطيران في أوائل العصور الوسطى»[2].

وبعد ذلك سجلت السنوات الاولى من القرن العاشر ذروة ازدهار الحكم الأموي في الأندلس، مقترنة باسم عظيم هو أسم عبد الرحمن الناصر (300 – 350هـ/ 912 – 961م) الذي شهد حكمه أزدهاراً رائعاً في جميع الفكر والحضارة ولم يكن لها مثيل حتى ذلك الحين[3]. ويعدّ عصره من أزهى عصور الأندلس في جميع المجالات.

ويكفي ان نشير الى بنائه عدداً من القصور الفخمة في قرطبة، ثم بنائه «مدينة الزهراء» في شمال غربي العاصمة، وهي التي بقيت أطلالها حتى اليوم شاهدة على رقي الفن المعماري الأندلسي، وعلى مدى غنى الخلافة وترفها الفائق. ولابد أن نشير كذلك، الى زيادته في المسجد الجامع بقرطبة، وهي زيادة ضاعفت مساحته، وبناء صومعة الجامع (أي مئذنته) وتجديد محرابه الذي يعد حتى اليوم آية من آيات الفن الإسلامي في الأندلس[4]. كذلك، اقام الناصر بما يعرف بالظلة في صحن المسجد الجامع، وهي سقف متحرك يقام من أعمدة الخشب والحصر، ليستظل بها الناس أثناء الصلاة في الصيف، ثم ترفع بعد الصلاة، لأن صحن الجامع الفسيح كان مزيناً بأشجار النارنج، وهذه ظاهرة تنفرد بها صحون مساجد الأندلس من غيرها من صحون المساجد في العالم الإسلامي. ويعد الناصر من أكثر حكام المسلمين في مختلف نواحي بلاده، فإليه يرجع الفضل في تجديد أو أنشاء عدد كبير في مساجد مدن الأندلس من شماله الى جنوبه، ولا نزاع في أن هذا الرجل يعد من كبار البنائين في تاريخ الإسلام. ولم تقتصر منشآته على القصور والمساجد، بل اليه بنسب أنشاء دار السكة في قرطبة، وتجديد قنطرة الوادي في «أودية وتجديد قنطرتي سرقسطة ومارده[5].

وأما عنايته بالثقافة فيبدو في كثرة ما شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة. وفي أول عهده ظهر كتاب العقد» «الفريد» لابن عبد ربه (328هـ/ 940م)، وهو يعد حتى اليوم من المصادر الأدبية الرئيسة. وفي سنة (942م) أستقدم الناصر العالم اللغوي الكبير (أبا علي القالي) الذي أصبح رائداً لنهضة لغوية ونحوية عظيمة في الأندلس وحفل بلاطه بالفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء

(1) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، المصدر السابق، ص 82.

(2) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بلا تاريخ، ص58.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص21.

(4) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، المصدر السابق، ص ص88 – 89.

(5) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ص328 – 329.

ومما يذكر أن الإمبراطور البيزنطي حينما بعث اليه بسفارته أهدى اليه كتاب (ديو سقوريدس) في الأعشاب الطبية، فندب الناصر من يقوم بترجمته الى العربية[1].

وازدادت النهضة الفكرية في عهد الحكم المستنصر (350 – 366هـ) قوة وازدهاراً. وكان الحكم، وهو الخليفة الأديب العالم، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة. وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة، واحتشاد أكابر الأساتذة بين عقودها، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى التي بذل الحكم في أنشائها الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع مثله[2]، حتى كان له وكلاء في البلاد الإسلامية الكثيرة، يزودونه بكل ما ينتجه العلماء المسلمون من المؤلفات، وأقام لها موظفين للعناية بشؤونها، وزاد عدد كتبها الى أربعمائة ألف كتاب[3]. وقد ذكر أحد المؤرخين أن مائة وسبعين أمراة في ضاحية قرطبة الشرقية وحدها يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن بالخط الكوفي. فيما قال كاتب عربي أسباني في القرن الخامس الهجري، هو سعيد الطليطي، في كتابه «تصانيف الأمم» عن الحكم المستنصر: «هو الذي جلب أهم المؤلفات الرئيسة النادرة المتعلقة بالعلوم القديمة والحديثة، من بغداد وأماكن أخرى في المشرق. وجمع منها في أواخر حكم أبيه ومن ثم طيلة حكمه هو نفسه، عدداً يضاهي تقريباً العدد الذي جمعه الأمراء العباسيون برمتهم، في وقت أطول بكثير»[4]. وكان الحكم نفسه كما ذكر المقري نقلاً عن أبن الآبار: «في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذياً، نسيج وحده، وكان ثقة فيما ينقله »[5]. كما احتشد حول بلاط الحكم، جمهرة من أكابر العلماء والشعراء والأدباء مما جعل من قرطبة أعظم مركز علمي في الغرب كله، الإسلامي والمسيحي على حدٍ سواء[6].

وكان المنصور بن أبي عامر (367 – 392هـ/ 977 – 1002م) آخر حكام عصر الازدهار الحضاري في الأندلس المسلمة، الذي لم تمنعه أعماله العسكرية المتواصلة من العناية بالمنشآت العمرانية، وعن تشجيع الثقافة والأدب. وقد بدأ حكمه الاستبدادي ببناء قصر ريفي له على مقربة من مدينة الزهراء وسماه العامرية. وفي سنة (369هـ/ 979م)، بنى مدينة جديدة سمّاها «الزاهرة» على ضفاف الوادي الكبير وأسكنها وزراءه وقادته ورجال دولته. وكانت من أهم منشآته زيادته للمسجد الجامع بقرطبة بمقدار الثلث من الناحية الشرقية حتى بلغت مساحته (300×24) م^2، ولكن البناء نفسه يعد فقيراً من الناحية الفنية إذا ما قيس بما قام به الحكم المستنصر، كما عني المنصور بالثقافة. فاستدعى العالم اللغوي الإخباري الشاعر (صاعدا

(1) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، المصدر السابق، ص89.

(2) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس : الخلافة الأموية والدولة العامرية، مكتبة الخانجي، ط4 ج2، القاهرة، 1389هـ – 1969م، ص701.

(3) أبراهيم سلمان الكروي والدكتور عبد التواب شرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات ذات السلاسل، ط2، الكويت، 1407هـ – 1987م، ص456.

(4) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص69.

(5) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المصدر السابق، ص395.

(6) محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي، المصدر السابق، ص91.

البغدادي)، لينافس به (أبا علي القالي) الوافد على عبد الرحمن الناصر وأغدق على الشعراء الذين كانوا ألسنة دعاية له، فخلدوا وانتصاراته، وكان من أشهرهم شاعره (الأثير ابن دراج القسطلي)[1].

على أننا يجب ألا ننسى أن قوة الدفع السائدة في عصر الخلافة كانت هي السبب الأساسي لاستمرار مسيرة الثقافة الأندلسية في عهد المنصور، لأننا لم نجد في هذا العهد تقدماً ملحوظاً وجدياً في أي ميدان من ميادين المعرفة، ولم نرى أعلاماً بارزين في أي فرع من فروع الثقافة المختلفة، باستثناء تلك البقية من أعلام عصر الخلافة. ولعل من عوامل استمرار الدفع الأخرى للثقافة الأندلسية في هذا العهد، هو أن الحاجب المنصور كان على صلة قديمة بالثقافة، وقد أرتبط بها منذ نشأته، وأنه كان مصاحباً للعلماء ويروي عنه، أنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره، وأن هذا المجلس كان مصاحباً للعلماء ويروي عنه، أنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور طيلة أقامته بقرطبة. ومن الملاحظات الأخرى على علوم هذا العهد، هي خمول الدراسات الفلسفية التي لقيت مقاومة من لدن الحاجب المنصور، من أجل إرضاء عامة الناس، وكسب تأييد الفقهاء. ومن أخطر أعماله في هذا المجال أحراقه لكتب الفلك والمنطق والفلسفة، التي كانت تمتلئ بها مكتبة الحكم الستنصر. وبذلك خمدت روح البحث العلمي، وقيدت الحرية الفكرية، وتهيب الناس من دراسة العلوم العقلية، وقد تخفى بعض العلماء، وهرب القسم الآخر نحو المشرق، للتخلص من الاضطهاد[2]. كل ذلك كان إيذاناً ببدء أفول شمس الحضارة العربية في الأندلس التي لم يغمر إشعاعها بلاد الأندلس فحسب، بل امتد علومها وآدابها الى ممالك أوروبا التي كانت غارقة يومذاك في ظلمات الجهل والتخلف.

(1) المصدر نفسه، ص95.

المبحث الثاني : طرق انتقال الحضارة العربية في الأندلس الى أوروبا:

كانت قرطبة في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)، أيام خلافتي عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر عاصمة الإسلام السياسية الأكثر سطوعاً في ذلك الوقت، والأكثر تحضراً في أوروبا، كما يشير المؤرخ المعروف (رامون فندث بيدال). ومع ان صورة العالم الإسلامي في نظر نصارى الغرب غدت منذ القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، صورة عدو تجب محاربته، لأن الضرورة كانت تقتضي الحفاظ على تماسك العالم الغربي ووحدته عبر تصورات ذهنية ذات شحنة عقائدية كبيرة عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، فقد حدث تواصل حضاري شيئاً فشيئاً بين العالمين المتصارعين، وكانت تربة شبه الجزيرة الإيبيرية مثالاً لذلك التواصل الذي شمل قارة أوروبا برمتها[3].

كانت طرق التواصل التي انتقلت بوساطتها الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس الى الممالك الأوربية تتمثل في الآتي:

(2) خليل أبراهيم السامرائي، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص ص330 – 331.

(3) مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، المصدر السابق، ص ص1477 – 1478.

أولاً: محبو العلم الأوربيون الذين توافدوا على بلاد الأندلس بحثاً عن المعرفة والثقافة العربية الإسلامية، وكان هؤلاء يقضون السنوات الطوال في الدراسة والتتبع، والاطلاع على كتب العرب فيها. وفي مقدمتهم الراهب الفرنسي (جربرت دي أورباك) الذي وفد الى الأندلس في عهد الحكم المستنصر، وعني بصورة خاصة بدراسة العلوم الرياضية، وبرع فيها، حتى خيل لعامة الفرنسيين - بعد رجوعه - آنذاك بأنه ساحر، وأصبح فيما بعد بابا روما بأسم البابا سلفستر الثاني (390 - 394هـ)، وله دوره البارز في نشر علوم العرب في أوروبا[1].

كما يمكن الاستنتاج افتراضا من ظروف هرمان الكسيح (1013 – 1054م) وهو ابن أمير دالماسيا من أصل سويسري، وقد كتب في الرياضيات والتنجيم عن تأثير الحضارة العربية الأندلسية. فهذا الأمير لظروفه المرضية لم يزر الأندلس، إلا أنه استفاد أولاً من ترجمات لأعمال عربية كالتي وجدت في شارتر أو التي عملت لجربرت. واستفاد ثانياً من الطلاب الأوربيين العائدين من الأندلس، والذين كانوا يمرون بدير (ريخناو) الذي يقيم به (هرمان)، ويقضون فيه مدة قبل رجوعهم الى بلادهم. وعن هؤلاء نقل (هرمان) كل ما جلبوه من الآلات الفلكية العربية وفي مقدمتها الإسطرلاب[2].

ثانياً: البعثات العلمية ذات الطابع الرسمي التي أرسلتها الى الأندلس حكومات بعض الدول الأوروبية. وقد توالت البعثات الأوروبية على الأندلس بأعداد متزايدة سنة بعد أخرى، حتى بلغت سنة (312هـ) في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. وكانت إحدى هذه البعثات من فرنسا برئاسة الأميرة (اليزابيث) أبنة خال الملك لويس ملك فرنسا، وبعث فيليب ملك بافاريا الى الخليفة هشام الثاني (توفي حوالي العام 403هـ) بكتاب يطلب فيه الإذن بأرسال بعثة من بلاده الى الأندلس، للاطلاع على مظاهر التقدم الحضاري فيها والاستفادة منها، فوافق الخليفة هشام، وجاءت بعثة هذا الملك برئاسة وزيره (ويلمبين) الذي يسميه العرب (وليم الأمين). وقد كانت هذه البعثة التي ترأسها (وليم الأمين) تتألف من (215) طالباً وطالبة وزعوا على جميع معاهد الأندلس. وتخبرنا الروايات أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الدين الإسلامي ورفضوا العودة الى بلادهم. ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بمشاهير من رجال الأندلس في ذلك الوقت، وأنجبن عدداً من العلماء كان منهم عباس بن مرداس الفلكي[3].

ثالثاً: استقدام علماء الأندلس الى أوروبا؛ لتأسيس المدارس فيها ونشر ألوية العلم والعمران، ففي خلال القرن التاسع الميلادي وما بعده وقعت حكومات هولندة وسكسونيا وانجلترا على عقود مع حوالي تسعين من اساتذة العرب في الأندلس بمختلف العلوم. وقد اختير هؤلاء من بين أشهر العلماء الذين كانوا يحسنون اللغتين الإسبانية واللاتينية الى جانب العربية. ووقعت تلك الحكومات عقوداً أخرى مع حوالي مائتي خبير عربي في مختلف الصناعات، ولاسيما أنشاء السفن وصناعة النسيج والزجاج والبناء وفنون

(1) خليل أبراهيم السامرائي، أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوربا، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، المصدر السابق ، ص ص474 - 475.
(2) المصدر نفسه، ص475.
(3) المصدر نفسه، ص476.

الزراعة. فيما أقام بعض المهندسين العرب أكبر جسر على نهر التايمس في بريطانيا عرف بأسم (جسر هليشم Helichem). وهذه الكلمة تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس الذي أطلق الانجليز أسمه على هذا الجسر عرفاناً؛ لأنه أرسل إليهم أولئك المهندسين العرب. وكذلك كان المهندسون العرب هم الذين شيدوا قباب الكنائس في بافاريا، وماتزال توجد في إحدى المدن الألمانية (شتوتغارت) حتى اليوم سقاية ماء تدعى (اميديو)، وهو تحريف لكلمة أحمد المهندس العربي الذي بناها [1].

رابعاً: تناقل النصوص الشفوية للقصص العربية والشعر العربي، التي روجها الرواة الجوالون بين أهالي الغرب من دون أن يدرك هؤلاء أصلها ومصدرها [2].

لقد ظهر تأثير اللغة العربية بين أبناء النصارى الساكنين في شبه الجزيرة الأيبيرية، بشكل أعمق من مجرد تناقل نصوص شفوية عن طريق أفراد يجوبون البلاد. وهذا ما يشير اليه (الفارو القرطبي)، وهو أحد أنشط رجال المقاومة ضد الإسلام في شبه الجزيرة خلال القرن التاسع الميلادي : «أن أبناء طائفتي يحبون قراءة الأشعار وتراث الخيال العربية، وهم لا يدرسون كتابات رجال، ليدحضوها، وإنما يدرسونها ؛ ليكتسبوا نطقاً عربياً سليماً ورفيعاً ... جميع الشباب المسيحيين الذين يعتبرون لموهبتهم لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها، أنهم يقرؤون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير، ويشكلون منها مكتبات هائلة بأثمان باهظة، ويعلنون عن هذه الآداب في كل مكان أنها مدهشة ... فيا للألم ! لقد نسي المسيحيون كل شيء حتى لغتهم الدينية. أنك تكاد لا تعثر بيننا، ألا بجهد واحد بالألف يعرف كما يجب، كتابة تحرير الى صديق باللغة اللاتينية. أما إذا كان الغرض الكتابة في العربية، فأنك تجد جمهرة من الأشخاص يعبرون على وجه موافق وبلباقة فائقة في هذه اللغة، وسترى انهم ينظمون أشعاراً، تفضل من وجهة نظر الفن الأشعار التي ينظمها العرب أنفسهم»[3].

خامساً: استمرار وجود العلاقات التجارية مع بلاد الأندلس تلك العلاقات التي ظلت قائمة على الرغم من العداءات بحيث تقارب العالمان المتضادان عبر العلاقات التجارية ذات الأهمية الدائمة [4].

سادساً: التقارب السياسي بوساطة السفارات الدبلوماسية. ولقد نوه بتبادل علاقات سياسية طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بين بيزنطة وقرطبة، ولاسيما في ظل حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر. وتذكر الرواية الغربية أن هذا الأخير قد طلب من نبسيفور (فوكاس) أن يبعث اليه خبيراً في صنع الموزاييك بقصد تزيين التوسع الذي كان يزمع القيام به مسجد قرطبة [5].

وفي أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتألق أضواء قرطبة أن وفد السفراء

(1) المصدر نفسه، ص477.

(2) مارغرينا لوبيز غوميز إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، المصدر السابق ، ص 1478.

(3) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص80.

(4) مارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، المصدر السابق، ص 1478.

(5) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص82.

عليه من شتى بلاد أوروبا. وقد أرسل اليه أمبراطور الإمبراطورية الجرمانية المقدسة، ويسميه المؤرخون «هوتو ملك «الصقالبة سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء، وبعث اليه «هيوكابية» ملك الفرنجة في فرنسا، ويسميه مؤرخونا «هوفو ملك الفرنجة». وكذلك أرسل اليه قلدوا» ملك الفرنجة في أقصى شرق أوروبا والمقصود به Hugo de Arless وهو مركيز «بروفنا» في جنوب فرنسا.

وأرسل اليه سفارة كونت برشلونة وطركونة. بل أرسل اليه صاحب روما، وهو البابا سفارة تخطب وده، وفي هذا ما يدل على ما وصل الناصر من عظمة وجلال في أنظار ملوك الغرب[1].

وذكر ابن حيان وغيره ان ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الروم، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومناصفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم ألا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى، فأنه هاداه، ورغب في موداعته»[2]. وفي عهد الحكم المستنصر بدأت سفارات الممالك الأوربية تتوافد من جديد على قرطبة. وقد وصف لنا أبن حيان استقبال هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع كلها، بل أرسل (يوحنا الشميشق) أمبراطور بيزنطة سفارة الى قرطبة سنة (361هـ/ 972م)، وكذلك أرسل (أوتو الثاني) أمبراطور المانيا، الذي خلف أوتو (الأول) سفارة لتجديد المودة والصداقة مع قرطبة[3].

سابعاً: اللاجئون السياسيون مثل المستعربين الذين على الرغم من تعايشهم مع المسلمين بروح من التسامح مدةً من الزمن، هاجروا الى شمال شبه الجزيرة في مراحل التعصب والتزمت الديني، للعيش مع إخوانهم النصارى هناك[4].

ثامناً: خزائن المدونات في أديرة شبه الجزيرة، ولاسيما (سانتا ماريا دي ريبول) الذي اقتنى بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد أعداداً كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، لترجمتها من قبل رهبان الدير الذي أنحدر العديد منهم من أصل مستعرب[5].

تاسعاً: مدارس الترجمة التي أنشأها الملوك والأساقفة في طليطلة عقب سقوطها بأيدي النصارى سنة (478هـ/ 1085م)، مثل الاسقف (رود ريغو خمينيث دى رادا) وملك قشتالة وليون (ألفونسو العاشر) الملقب بالحكيم، وكان الغرض من أنشاء مدارس الترجمة تلك، هو التعرف بعمق على مضامين الحكمة العربية المتراكمة في خزائن الكتب الكبيرة للحكام المسلمين السابقين. وقد شكلت اعمال الترجمة قناة غير مباشرة، ولكنها ملموسة جداً، لنقل الثقافة الإسلامية من بلاد الأندلس الى أوروبا. وأدت مدارس الترجمة تلك الى اجتذاب مجموعة من رجال الفكر ذوي الأصول الأوروبية المختلفة المنتمين الى الأديان التوحيدية الثلاثة (الإسلام والنصرانية واليهودية) الى شبه الجزيرة، مما

(1) الدكتور حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، المصدر السابق ، ص ص330-331.

(2) المقرئ، نفح الطيب، ج1، المصدر السابق، ص83.

(3) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، المصدر السابق ، ص335.

(4) مارغريتا غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، المصدر السابق ، ص1478.

(5) المصدر نفسه، ص1478.

أضطرهم الى التعايش جنباً الى جنب خلال أعمال الترجمة؛ ليقوموا بعد ذلك بنشر نتائج ترجماتهم للمخطوطات العربية في بلدانهم الأصلية [1].

عاشراً: وقد تم أيضاً بطبيعة الحال انتقال وتبادل حضاري في ميدان الفن عن طريق المحاكاة، فنسخت في طرز ملابس المراسيم لبعض الملوك النصارى كتابات بالخط الكوفي (أدعية أو آيات قرآنية)، ظناً بان تلك الكتابات ليست إلا نقوشاً للزينة خالية من المعنى [2].

حادي عشر: أن الاختلاف الكائن بين الديانتين الإسلامية والمسيحية لم يكن عائقاً في وجه علاقات زوجية بين مسلمي الأندلس والفتيات المسيحيات إذ تؤكد المصادر وجود مزاوجات من الطرفين بين شخصيات من الطبقة الأرستقراطية أو من ذوي الدم الملكي، فجدة عبد الرحمن الناصر هي الأميرة المسيحية (دونيا أينيقيا)، فيما كانت أم الخليفة هشام المؤيد (366 - 399هـ/ 976 - 1009م) هي «صبح» الملقبة بالبشكنسية، وهي في الحقيقة نافارية [3]. وهكذا الحال بالنسبة لكثير من الزيجات التي تمت في أوساط الطبقة الحاكمة، أو بين عامة الشعب. وقد كان لهذه الزيجات تأثير غير مباشر في نقل الكثير من العادات والمظاهر الحضارية بين الطرفين وبخاصة بين أسر العائلات المسيحية التي صاهرت المسلمين.

ثاني عشر: لقد ساهم المستعربون أيضاً، وهم نصارى الأسبان الذين عاشوا مع العرب في الأندلس في نقل الحضارة العربية إلى أسبانيا النصرانية، لأن هؤلاء بحكم معرفتهم للغتين العربية والإسبانية القديمة كانوا يتنقلون بحرية من أراضي الأندلس الى الأمارات الإسبانية، ومعهم الكثير من مظاهر الحضارة [4].

المبحث الثالث : ظهور الجامعات الأوربية: العوامل الدينية والاجتماعية

الأثر الحضاري للأندلس على أوروبا

مما لا شك فيه أن عوامل التغلغل الحضاري المتبادل لا يمكن قياسها أحياناً بمقتضى معايير الإحصاء الباردة مثلما يعمل بعضهم مؤخراً، كما يتعذر الاستدلال عليها حال حصولها في زمنها؛ لأن التأثير الحضاري المتبادل ليس تأثيراً كمياً في غالب الأحوال، بل يعتمد على قدرة التقبل لمن يتمثل ويستوعب، وعلى تقارب الطرفين، المؤثر والمتأثر الأمر الذي لا يسع تقويمه ألا عن بعد، وعقب مضي وقت من الزمن [5].

ومع ذلك، فمن المسلم به أن تأثير الحضارة الأندلسية في أوربا كان قد بدأ منذ القرن الثامن الميلادي. ولقد أتخذ هذا التأثير صوراً وأشكالا نظراً للحالة التي كانت عليها أوروبا حينئذ. ويمكن تمييز ثلاث مراحل لأثر الحضارة الأندلسية في أوروبا من بدايتها الأولى وحتى عصر النهضة، وهي: عصر التأثير غير المباشر، عصر الترجمة من العربية الى اللاتينية، عصر الاستعراب - قمة التأثير

(1) المصدر نفسه، ص ص1478 – 1479.
(2) المصدر نفسه، ص ص1480 – 1481.
(3) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، مرجع سابق، ص81؛ الدكتور حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، المصدر السابق ، ص339.
(4) عبد الواحد ذنون طه، عهد الأمارة في الأندلس، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، المصدر السابق ، ص44.
(5) مارغريتا غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، مرجع سابق، ص1481.

العـربي[1].

أن مـا يعنينـا في هـذا البحـث، هـو أن نلقـي الضـوء عـلى أهـم المجـالات التـي اسـتفادت منهـا أوروبـا مـن الحضـارة العربيـة في الأندلـس خـلال القرنـين التاسـع والعـاشر الميلاديـين. وعـلى ذلـك، فسـنقتصر عـلى مناقشـة عـصر التأثـير غـير المبـاشر الـذي أسـتمر زهـاء ثلاثـة قـرون، عملـت عـلى وضـع أول خطـوة في طريـق تغيـير العقليـة الأوروبيـة. وقـد بـدأ هـذا العـصر كـما ذكرنـا، مـن القـرن الثامـن الميـلادي الى منتصـف القـرن الحـادي عـشر الميـلادي حيـث يبـدأ الثـاني، وهـو عـصر الترجمـة العربيـة الى اللاتينيـة.

لقـد لعبـت الأندلـس العربيـة دوراً بـارزاً في نقـل الحضـارة الى أوروبـا، فانتقـل عـن طريقهـا وعـن طريـق صقليـة والحـروب الصليبيـة، تـراث العـرب الإسـلامي الى أوربـا المسـيحية التـي كانـت تعيـش عـصر التخلـف والإقطـاع، وأصبحـت دور العلـم في الأندلـس قبلـة الدارسـين الأوروبيـين الذيـن نقلـوا مختلـف أوجـه الحضـارة معهـم الى بلادهـم سـواء أكان في مجـال العلـوم والطـب والفلسـفة والزراعـة أم في ميادين الآداب والفنـون، أهـم سـاحات العمـران والبنـاء، أم فيـما يتعلـق بالنظـم وأسـاليب الحكـم والإدارة[2].

قبـل أن نبـدأ ببيـان أثـر الحضـارة العربيـة في الأندلـس عـلى أوربـا، لابـد لنـا أولاً مـن الإشـارة الى أهـم المظاهـر الحضاريـة الإسـلامية التـي انتقلـت الى الشـمال الإسـباني؛ لأن وقـوع المناطـق العربيـة الإسـلامية بيـد الإمـارات الإسـبانية، كان عامـلاً مهـماً في الاتصـال والاحتـكاك بـين الطرفـين، ومـا أعقبـه مـن انتقـال العلـوم والفلسـفة، وكثـير مـن مظاهـر الحيـاة العامـة الإسـلامية الى الشـمال. فضـلاً عـن ذلـك، فقـد انتقلـت أيضـاً كثـير مـن التنظيـمات القانونيـة والحربيـة مـن الأندلـس الى الإمـارات الإسـبانية[3].

ومـن التأثـيرات الأخـرى التـي تبودلـت بـين الطرفـين التأثـيرات اللغويـة. فلقـد كانـت المصطلحـات العربيـة شـائعة في كل مـن ليـون وقشـتالة ونافـار، والمناطـق الأخـرى في الشـمال. كـما دخـل في اللغـة الرومانسـية، وهـي اللغـة الإسـبانية القديمـة الناتجـة مـن اللهجـة اللاتينيـة – الإيبيريـة، التـي كانـت في طـور التكويـن في ذلـك الوقـت، الكثـير مـن الكلـمات والمصطلحـات العربيـة، وكان هنـاك الكثـير مـن العـرب الذيـن يفهمـون هـذه اللغـة ويتكلمـون بهـا، وبشـكل خـاص في مناطـق الثغـور والحـدود. وفي الوقـت نفسـه، كان هنـاك الكثـير مـن المسـيحيين الذيـن لهـم إلمـام ومعرفـة باللغـة العربيـة. ويبـدو الأثـر العميـق الـذي مارسـته الثقافـة العربيـة الأندلسـية عـلى السـكان المسـيحيين في شـبه الجزيـرة الإيبيريـة مـن الاسـتعارات اللغويـة التـي اقتبسـتها اللغـة الإسـبانية مـن اللغـة العربيـة[4]. فلقـد وجـدت اللغـة الإسـبانية نفسـها كـما يقـول (ليفـي بروفنسـال): «مضطـرة طيلـة مرحلـة نموهـا، وحتـى القـرن الحـادي عـشر في الأقـل، الى ان تأخـذ مـن العربيـة كل مـا ينقصهـا حتـى ذلـك الوقـت للتعبـير عـن المفاهيـم الجديـدة،

(1) خليـل أبراهيـم السـامرائي، أثـر الحضـارة العربيـة في الأندلـس عـلى أوربـا، المصـدر السـابق ، ص474 ومـا بعدهـا.

(2) خاشـع المعاضيـدي، تاريـخ العـرب في الأندلـس، المصـدر السـابق ، ص249.

(3) عبـد الواحـد ذنـون طـه، عهـد الأمـارة في الأندلـس، المصـدر السـابق، ص ص144 – 145.

(4) عبـد الواحـد ذنـون طـه، دراسـات أندلسـية (المجموعـة الأولى)، منشـورات مكتبـة بسـام، ط1، الموصـل 1986، ص ص172 – 173.

وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة «[1]. وإذا ألقينا نظرة على اصطلاحات التنظيم المدني أو العسكري لدى أسبانيا في العصور الوسطى أو في العصر الحديث فأننا نكتشف فيها عدداً ضخماً من المفردات ذات الأصل العربي، ففي الجيش مثلاً، يطلق على رتبة الملازم حتى الآن Alferez، الكلمة العربية (الفارس)، ويطلق على المقدمة Atalaya، وهي الكلمة العربية (الطليعة). والى جانب ذلك تحتل العربية في تعبيرات (البناء) الفنية مكاناً كبيراً، فالمعماري يسمى Albanil وهي (البناء) في العربية. ولا يقل أثر العربية وضوحاً في مؤسسات الدولة، ومفردات الحياة اليومية، وأسماء الأماكن والأنهار والمدن. بل مازالت العربية باقية حتى الآن، في مفردات بعض المصطلحات الزراعية المتداولة في لغة الريف الصميمية وفي مقاييس وموازين كل حقل قروي، وفيما يتعلق بالري، وفي المفردات الخاصة بصيد البحر.

أن ما تقره معجمات علم النبات من الألفاظ العربية لا يقل نسبة عن ذالك، إذ إن أكثرية أسماء الفواكه والأزهار تشهد على أصلها العربي، وقد انتقل أيضاً عدد كبير من هذه الأسماء الى المفردات الفرنسية عبر البيرنية مثل: الياسمين (Jasmin)، والقطن والزيت (aceite). ولا ننسى كذلك أن اللغة الفرنسية تدين عن طريق الإسبانية، الى العربية بعدد من أسماء الألوان المستقلة عن أسماء الأزهار والفاكهة، مثل الأزرق (azur)، والقرمزي (Car-maisie) وغيرهما [2].

ولم يقتصر أثر العرب الحضاري على الإمارات النصرانية في الشمال وعلى النواحي الثقافية واللغوية فحسب، بل شمل أيضاً مجالات أخرى، منها الفنون، وبخاصة في العمارة والبناء الذي نقله المدجنون والذي ظهر في أسبانيا النصرانية منذ بداية القرن التاسع الميلادي، وظل فيها بشكل نهائي تقريباً. كذلك يظهر تأثير المسلمين على أسبانيا النصرانية في تطور الفنون الصغرى، مثل صناعة العاج والمصنوعات الذهبية والزجاجية والخزفية والتطريز. وظلت هذه الصناعات مستمرة في المدن التي استعادها الأسبان، والى أمد غير قصير بعد عصر الأمارة، بل حتى خروج العرب من الأندلس. وان قيام بعض ملوك الأسبان في وقت لاحق بضرب عملاتهم وهي تتضمن وجهين: عربي وقشتالي، وارتداء هم الملابس على الطريقة الإسلامية، ليدل على مدى العمق الذي تغلغلت فيه الحضارة العربية الإسلامية في نفوس الأسبان النصارى وعلى أعلى المستويات [3].

على الرغم من أوروبا كانت قد أقرت عن طيب نفس بدينها اتجاه العرب كوسطاء في نقل الفلسفة والطب والرياضيات عن الإغريق؛ لأن مثل هذا الأقرار لا يقوض أساس الأسطورة المتداولة عن الهوية الثقافية الأوربية ذات الأصول الفكرية والقبة الإغريقية الرومية، والمشربة بالأخلاق المسيحية»[4]، إلا أن واقع الحال ينطوي على حقائق أكثر من ذلك بكثير. ففي مجال الرياضيات كان العرب كما هو معروف قد أخذوا الأرقام الحسابية من الهند، وعن طريقهم انتقلت الأعداد، وبضمنها الصفر الى الأندلس، ومنها الى أوربا. وأول من أخذ الأرقام

(1) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص89.
(2) المصدر نفسه، ص89 وما بعدها.
(3) عبد الواحد ذنون طه، دراسات أندلسية (المجموعة الأولى)، المصدر السابق ، ص ص173 – 174.
(4) روجر بواز، التأثير العربي في الشعر الغزلي الأوربي، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، المصدر السابق، ص627.

العربية من الأوربيين هو كما أشرنا آنفاً (جربرت) الذي عرف فيما بعد بالبابا سلفستر الثاني الذي درس في الأندلس وبعدها ألف كتاباً شرح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية نتيجة أعمال (ليونارد ودي ليزا) الذي توفي في العام 1240م، والذي درس الرياضيات على يد معلم عربي في شمال أفريقية، وأصدر كتاباً يشرح فيه نظام كتاب التصريف لخلف بن عباس الزهراوي (توفي في العام 427هـ) قد استمر لمدة خمسة قرون عمدة في الأمور الجراحية في أوروبا[1]، وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية عدة مرات. فيما كان كتاب في العقاقير لماسوية المارديني (توفي العام 406هـ) بمثابة الكتاب المدرسي في الصيدلية في أوروبا لعدة قرون. ولا ننسى كذلك دخول كلمات عربية الى اللغات الأوربية المختلفة سواء أكان مباشر، أم عن طريق اللغة الإسبانية أو اللاتينية التي كانت لغة العلم والأدب في تلك العصور[2].

ومما هو جدير بالذكر أن معظم علماء النبات والزراعة المسلمين، قد نبغوا في الأندلس، وان الزراعة لم تصل في أي بلد آخر في العالم الإسلامي، بل في سائر أنحاء العالم المعروف يومذاك، الى ما وصلت اليه في الأندلس من التقدم والازدهار؛ لذا كان طبيعياً أن تنتقل الفنون الزراعية على يد الرواد المسلمين، وعلى يد الحملات الإسلامية المتعددة التي قامت خلال القرن العاشر الميلادي في جنوبي فرنسا، وفي ليجوريا وجنوبي سويسرا الى شعوب هذه الأقطار. ويقال ان القمح الأسود الذي يعد اليوم من أهم محاصيل فرنسا الجنوبية أنما هو أثر من آثار أولئك الرواد، فهم الذين نقلوا بذوره الى فرنسا، وهم أيضاً الذين نقلوا فسائل النخيل الذي مازالت تزدان به شواطىء الريفيرا[3].

ومن المناسب هنا الإشارة الى ان التقويم الشهير الذي وضعه الدبلوماسي (ريكمند) حتى العام (350هـ/ 961م) يسرد بتفصيل دقيق زراعة المحاصيل المختلفة وتربية المواشي من شهر الى آخره ويعرض صورة قيمة عن الإنجازات الكبيرة التي حققتها الأندلس في هذا المجال[4].

ويجب ألا ننسى أيضاً، أنه «عن طريق فن قرطبة في عصر الخلافة مباشرة اقتبس الفن الروماني بلا ريب، جزيئات عديدة؛ لتزيين كنائس هذا الفن». فيما يقرر (ايلي لامبيرت) في دراسة له أن مهندسي البناء والمزخرفين المسيحيين في فرنسا وإسبانيا، قد اقتبسوا بالتأكيد في عصر الفن الروماني عدداً وافراً من خيرة أشكال فن الإسلام الإسباني - المغربي، إلا أنهم كانوا دائماً يقلدون تلك الأشكال في أوسع مجال من الحرية، أي بمعنى آخر كانوا يبدلون فيها بروحية تختلف تمام الاختلاف عن الروحية التي ألهمت في إبداع نماذجها»[5].

«وفي ميدان الفن، انعكس التصور الكوني الشمولي للإسلام، ذاك التصور الناتج عن تلك القدرة على الجمع الكلي والبناء في آن واحد. فقد عرف المسلمون كيف يتمثلون المتطورات التقنية للحضارات التي دانت لهم سياسياً كالحضارة

(1) خليل إبراهيم السامرائي، أثر الحضارة العربية في الأندلس على أوروبا، مجرع سابق، ص475.
(2) المصدر نفسه، ص486.
(3) محمد عبد الله عنان، علماء الزراعة الأندلسيون، مجلة العربي، العدد 144، الكويت، رمضان 1390هـ/ تشرين الثاني 1970م، ص ص87 – 88..
(4) روبرت هيلنبراندة "زينة الدنيا" : قرطبة القروسطية مركزاً ثقافياً عالمياً، المصدر السابق ، ص192.
(5) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، المصدر السابق ، ص97.

الرومانية – البيزنطية والحضارة الفارسية، كما عرفوا في الوقت ذاته كيف يطبعونها بطابع عبقريتهم الخاصة في الابتكار والخلق، فبرز أساتذتهم في حالات كثيرة. وانتفعت أوربا من ذلك كله انتفاعا عظيماً[1].

واشتهرت الأندلس كذلك بصناعة الورق الجيد. وكان الورق الشاطبي (نسبة الى مدينة شاطبة) معروفاً في العالم الإسلامي كله. وبلغ من جودته أن بعض الوثائقيين كانوا لا يكتبون إلا عليه. والى جانب جودة نوعه أشتهر برخص ثمنه. وقد وصلت الرقاق الشاطبية الى جميع نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الأناجيل ووثائق الكنيسة عليها ثم قاد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك[2].

وبقي أن نذكر ما تركه الموسيقي المعروف بـ (زرياب) من أثر في أوربا، ونستشهد في ذلك، على ما شارت به المستشرقة الألمانية (سيجريد هونكة) في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) الذي تتحدث فيه عن فضل العرب على أوربا: «وأن المقاطع (دو – ري – مي – فا – صول)، لم تكن كما يدعي الأوربيون وبعض المغرضين أنها من وضع (جيد والاريزي حوالي سنة 1026م). أنما هي اقتبست من المقاطع النغمية للحروف العربية (د – ر – م – ف – صل)، وتجمعها الكلمتان (در مفصل). وأكد ذلك الأستاذ الدكتور جورج (فارمر المستشرق الإنكليزي المعروف بدراسة الموسيقى العربية ومخطوطاتها وتراثها «. وبلغ عدد طلاب البعثات أيام عبد الرحمن الأوسط (سنة 213هـ) وفي زمن زرياب، سبعمائة طالب وطالبة، التحق بعضهم بمدرسة زرياب الغنائية الموسيقية بقرطبة، ليتعلموا أصول الغناء والرقص والعزف وفنون الشعر. أما عن أثره في عالم أدوات الموسيقى والطرب، فهذا ما نجده في آلة (البيانو) التي كان أصلها عربياً وهي من مخترعات زرياب، وهي التي كانت تدعى (الشقير) فضلاً عن (العود) و(القيثار) و(الدف) و(الصنوج)، و(النقير) و(الطبل) و(الرباب).

– قنوات نقل المعرفة من الأندلس الى الجامعات الأوربية:

انتقلت الثقافة الأندلسية إلى أوروبا عبر عدة قنوات رئيسية ساهمت في نشر المعرفة والعلم والفنون، مما أثر بشكل كبير في النهضة الأوروبية. وأبرز هذه القنوات:

1. **مراكز الترجمة:**

– طليطلة (توليدو): بعد سقوط المدينة بيد المسيحيين عام 1085، أصبحت مركزاً عالمياً للترجمة تحت رعاية الأسقف ريموند، حيث تُرجمت أعمال عربية في الفلسفة (كابن رشد)، والطب (كابن سينا)، والرياضيات (الخوارزمي) إلى اللاتينية والعبرية.

– صقلية: تحت الحكم النورماندي (القرن 12)، نُقلت أعمال علمية وأدبية عربية عبر المترجمين مثل هنري kus Aristippus.

2. **التبادل العلمي والمؤسسات التعليمية:**

– جذب جامعات أوروبية مثل جامعة بولونيا وباريس أعمالاً مترجمة من الأندلس.[3]

(1) مارغرينا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوربا عبر الأندلس، ص1480.

(2) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص 334.

(3) الدكتور محسن جمال الدين، أثر زرياب وأسرته البغدادية في الأندلس، مجلة التراث الشعبي، العدد الفصلي الثاني، بغداد، ربيع 1987م، ص106.

– علماء أوروبيون زاروا الأندلس، مثل (أديلارد أوف باث) الذي درس الرياضيات والفلك هناك.

3. **التجارة والطرق التجارية:**

– نقل التجار عبر البحر المتوسط والبحر الأدرياتيكي سلعًا (كالحرير والتوابل) مع أفكار وتقنيات مثل الري والزراعة (كالقنوات والمحاصيل كالقطن).

4. **المجتمعات الوسيطة:**

– اليهود والمستعربون (المُسْتَعْرَبُون): نقلوا الثقافة عبر الترجمة، مثل موسى بن ميمون الفلسفة، ويهوذا اللاوي في الشعر.

– المسيحيون في الأندلس: نقلوا العادات والفنون إلى الممالك الشمالية.

5. **التأثير المعماري:**

– الطراز المُدَجَّن: مثل قصر المورق في إشبيلية وكنائس طليطلة التي جمعت بين الفن الإسلامي والمسيحي.

– تقنيات كالأقواس المُدبَّبة والزخرفة الهندسية التي أثرت في العمارة القوطية.

6. **الأدب والفنون:**

– تأثير الشعر الأندلسي (كالموشحات والزجل) على شعر التروبادور في فرنسا.

– نقل مفاهيم الحب العذري والرمزية الأدبية.

7. **التفاعلات السياسية والعسكرية:**

– حروب الاسترداد (الريكونكاويستا): أدت الى انتقال الثقافة عبر احتكاك الممالك المسيحية بالمدن الأندلسية.

– الحروب الصليبية: ممر إسبانيا كطريق للحجاج والعسكر الذين تعرفوا على العلوم الأندلسية. والتي توجت بتأسيس محاكم التفتيش الاسبانية عام 1480 [1].

8. **هجرة العلماء والحرفيين:**

– بعد سقوط غرناطة (1492)، هاجر علماء وفلاسفة الى إيطاليا وشمال أفريقيا، حاملين مخطوطات وأفكاراً.

9. **العلوم والتكنولوجيا:**

– نقل أعمال ابن الهيثم في البصريات، واختراعات الزرفالة (الإسطرلاب).

– استخدام الأرقام العربية (نظام الترقيم الهندي – العربي) عبر ترجمات الخوارزمي.

10. **الزراعة والصناعة:**

– تقنيات الري المتقدمة (كالسواقي) وزراعة الحمضيات والأرز، التي انتشرت في أوروبا. هذه القنوات شكلت جسوراً ثقافية جعلت الأندلس جسراً بين الشرق والغرب، وساهمت في إحياء أوروبا علمياً وفكرياً خلال العصور الوسطى المتأخرة.[2]

---

(1) المصدر نفسه، ص106.

(2) بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الاسبانية 1480–1516، دار زهران للطباعة والنشر، عمان – الأردن، 2005، ص90–31.

الخاتمة:

كانت قرطبة عاصمة خلافة عبد الرحمن الناصر، في قمة عظمتها مركزاً للإشعاع الفكري والثقافي والعمراني، وليس في الأندلس فحسب بل في كل البلاد الإسلامية. ومما يروي عن تطورها العمراني، ان بلاط الخليفة في مدينة الزهراء، كان عبارة عن قصر تقوم فيه قواعد الجص بالدوران حول نفسها، كما ان أشعة الشمس تنفذ ببطء من خلال الألواح المخرمة في السقف، وتعمل على تأجيج القرميد الباهر الذي وصفت به الجدران، وكل هذه الألوان التي هي حركة دائبة كانت بدورها تنعكس على نافورات أرضية تزود من خزانات لا تحوي الماء، بل الزئبق. وعندما زار ملك صغير الشأن من الشمال يدعى (أوردونو) عبد الرحمن الناصر، أغفي عليه بسبب هذه العجيبة العمرانية التي كانت براعة صنعها، فوق ما يتصورها فهمه وزيادة على ذلك كان هناك ازدهار في مجال التعليم، ومع أنه قد يكون من قبيل المبالغة، ان نؤيد ما ذهب اليه الباحث الهولندي المعروف (رينهارت دروزي) في «إن كل شخص في قرطبة، كان يعرف القراءة والكتابة» فأنه لمن المؤكد أنه خلال هذه السنوات التي بلغت فيها الأندلس ذروة الحضارة، فان العلم الأوربي لم يكن قد حصل ألا على أقل القليل من المعرفة. ومن هنا كان طبيعياً ان نجد أشخاصا من جميع البلدان الأوربية جاؤوا الى قرطبة؛ لينهلوا من منابع العلم والمعرفة الأندلسية. لقد تعلم (سليفستر الثاني) الذي أصبح فيما بعد البابا، على أيدي العرب في طليطلة، كما أن العالم السياسي الإسباني (السيد سانشيز – ألبونوز)، الذي كان رئيساً لجامعة مدريد، وسفيراً لبلاده، ثم وزيراً لشؤونها الخارجية، قد أعترف بدون مواربة قائلاً إن المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى، ولكن علينا أن نرى مقابل أوروبا التي تنمو في التعاسة والانحطاط، حضارة أسبانيا المسلمة، الرائعة. فأن اساتذة الدراسات العربية يفتحون لنا في كل مرة، آفاقاً جديدة عن مدى تألق هذه الثقافة الإسبانية – المغربية وعمقها. فقد أدعوا ان لها مقاماً حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوربا المسيحية، وبرهنوا على أن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط، والقديس توماس ودانتي. ومع نفور كثيرين، في كل ناحية من ناحيتي جبال البيرنية والبحر المتوسط، حتى الآن من الإقرار لها بهذا التفوق، وذلك الدور الموجه، ألا أن براهين وافية للغاية، تؤكد حقيقة مفادها أنه منذ الآن، وحتى يبزغ فجر يوم آخر، ستقضي قرون عديدة، قبل أن تعمل النهضة ثانية على تفجير ينابيع كادت تنضب كان نهر الحضارة الأندلسية في قرطبة قد استمد منها جوهر الفكر القديم، ثم نقله الى العالم الجديد.

المصادر والمراجع

1. إبراهيم سليمان الكروي وعبد النواب شرف الدين، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، منشورات السلاسل، ط2، الكويت، 1407هـ/ 1987م.
2. بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية 1480-1566، دار زهران للطباعة والنشر، عمان – الأردن، 2005.
3. حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار مطابع المستقبل، ط1ذ، القاهرة، 1980.
4. خاشع المعاضيدي، تاريخ العرب في الأندلس 92-897هـ/ 711-1492م، بغداد، 1986.
5. خليل إبراهيم السامرائي، حضارة العرب في الأندلس، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الموصل، 1986.
6. خليل إبراهيم السامرائي، إثر الحضارة العربية في الأندلس على أوروبا، كتاب تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، بغداد، 2008.
7. روبرت هيلنيراند «زينة الدنيا» قرطبة القروسيطية مركزاً ثقافياً عالمياً، ج1، د.ت.
8. السيرانيون غارثيا سانشيز، الزراعة في أسيا بين المسلمة، كتاب الحضارة الرعبية الإسلامية في الأندلس، مركز دراسات الوحدة الرعبية، ط1، بيروت، كانون الأول 1998.
9. الشيخ احمد بن محمد المغري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، ج1، بيروت، 1388هـ-1968م.
10. عبد الواحد ذنون طه، دراسات أندلسية (المجموعة الأولى) منشورات مكتبة بسام، ط1، الموصل، 1986.
11. عبد الواحد ذنون طه، عهد الأمارة في الأندلس، كتاب تاريخ الرعب وحضارتهم في الأندلس،الموصل،مؤسسةدارالكتب،1986.
12. غارغريتا لوبيز غوميز، إسهامات حضارية للعالم الإسلامي في أوروبا عبر الأندلس، كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، بيروت، دار الرشاد، 1969.
13. ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
14. محسن جمال الدين، إثر زرياب وأسرته البغدادية في الأندلس، مجلة التراث الشعبي، العدد الفصلي الثاني، بغداد، ربيع 1987.
15. محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس: الخلافة الأموية والدولة العامرية، مكتبة الخانكي، ط4، ج1، القاهرة، 1389هـ/ 1969م.
16. محمد عبد الله عنان، علماء الزراعة الأندلسيون، مجلة العربي، العدد 144، الكويت، رمضان 1390 تشرين الثاني 1970.
17. محمود مكي، تاريخ الأندلس السياسي (92-897هـ/ 711-1492م)، النهضة العربية، 2002.
18. ناجي معروف، المدخل في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة العاني، بغداد، 1960.